عرض الكتب

اسم الكتاب : دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة

المؤلف : أ. د. سعد بن عبدالعزيز الراشد

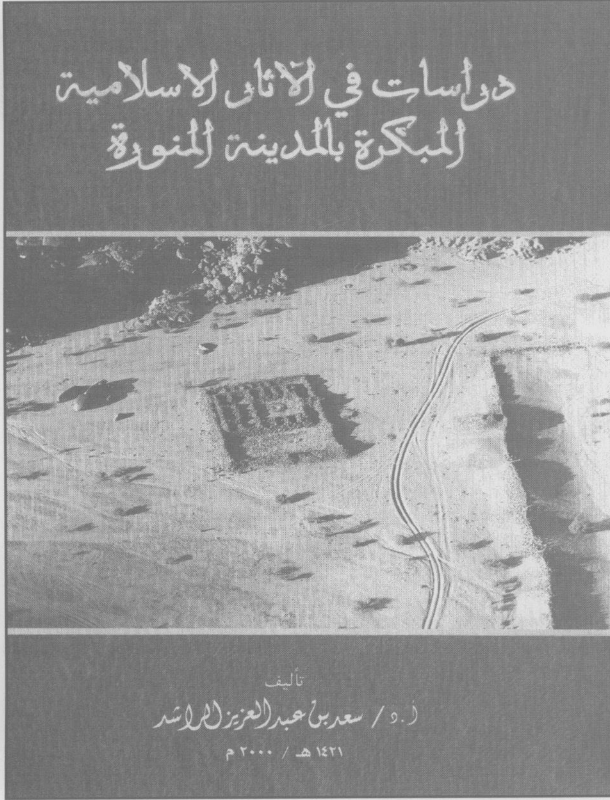
الناشر : مؤسسة الحزيمي للتجارة والتوكيلات - الرياض.

سنة النشر : (ط ١) ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

رقم التصنيف الدولي: ٩-٠٥٩-٣٨-٩٩٦٠ .

مقاس الكتاب : ٢١ × ٢٩,٧ سم .

عدد الصفحات : ٢٤٨ صفحة، (وتشمل ١١٧ لوحة، ٤٩ شكلاً، رسمين وخارطتين) .



عرض : د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان

بادئ ذي بدئ، نزف شكرنا العميق وامتناننا الأخوي الطيب، على الجهود العلمية النيّرة للأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد في تقصيه للمكونات الأثرية الإسلامية، التي تزخر بها أراضي المملكة العربية السعودية. ويُعد هذا الكتاب، الذي بين أيدينا، تتويجاً لأعماله العلمية الآثارية السابقة.

تنبثق أهمية هذا الكتاب من عدة أسباب، منها: أن الكتاب يسلط الضوء على أهم وأبرز الآثار الاسلامية المبكرة المكتشفة حتى الآن، على أراضي عاصمة الدولة الإسلامية الأولى أراضي مدينة يثرب (المدينة المنورة) التي أكرمها الله سبحانه وتعالى لتكون البيت الفسيح، المضياف، والمناصر، لدعوة أشرف الخلق ورسول الرحمة محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم)، الذي أرسله الله تعالى هدى ورحمة للعالمين. ومن هذه المدينة المقدسة ومحيطها الجغرافي - بوهاده وسهوله وجباله وأوديته وشعابه - انطلقت السّرايا الإسلامية المؤمنة، الحاملة للواء الدّين الإسلامي إلى أنحاء المعمورة.

وثاني أسباب أهمية هذا الكتاب، هو أنّ جل مادته العلمية مستقاة مباشرة من نتائج الأعمال الميدانية، ووقوف المؤلف نفسه، على جميع هذه المواقع الأثرية.

أما ثالثها فالكتاب يُعَدّ نتاجاً وطنياً بحتاً، بدءاً بجمع المادة العلمية وتحريرها، مروراً بصياغة الوسائل التوضيحية، وانتهاءً بصف المادة العلمية، ومن ثم إخراجها ونشرها بتمويل جزل من إحدى المؤسسات التجارية الوطنية التابعة للقطاع الخاص بالمملكة. والعمل الأخير - بلا شك - يُشكر فاعله، وهو خطوة رائدة نتمنى من الآخرين، في القطاع الخاص، العمل على الاحتذاء بها، وتعميق مشاركتهم بإبراز التراث الإسلامي للمملكة العربية السعودية.

وآخر أسباب أهمية الكتاب، تكمن في أنّ الرّيع المادي المتحصل من مبيعاته، سوف يذهب لصالح جمعية الأطفال

المعـاقين بالمدينة المنورة. وما أحـوج هذه المؤسسـة الخيـرية، وغيرها من المؤسسات الخيرية، للعون والدعم والمساعدة، من جميع فئات المجتمع لأنها تقوم على رعاية وتأهيل فئة عزيزة على نفوسنا جميعاً، وهي فئة تقلل محدودية قدراتها الجسمية، من دورها الفاعل في مجتمعنا الإسلامي.

يضم الكتاب بين دفتيه مجموعة من الإكتشافات، لمواقع أثرية إسلامية، تقع ضمن الإطار الجغرافي للمدينة المنورة. وعلى الرغم من تناول الباحث للعديد من هذه المواقع، في مناسبات ولقاءات علمية مختلفة، سواء داخل المملكة أو خارجها، ومن ثم معرفة المتخصصين بأبعاد هذه الآثار وحيثياتها، إلاّ أن تضمينها في مجلد واحد يبقى مطلباً في غاية الأهمية لدى المهتمين، كما يتوافق مع أهمية ومكانة المدينة المنورة وضرورة الاهتمام بمخزونها الحضاري. وتُماثل أهمية دراسة الآثار الإسلامية بمنطقة المدينة المنورة، أهمية تناول الآثار الإسلامية بمنطقة مكة المكرمة، بالبحث والدراسة.

استهل المؤلف الكتاب، بإهدائه الى صاحب السمو الملكي، الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود، أمير منطقة مكة المكرمة (أمير منطقة المدينة المنورة سابقاً)، وذلك وفاءً وعرفاناً بجهود سموه الكريم، في رعاية تراث منطقة المدينة المنورة، وآثارها وتاريخها. يتبع ذلك صفحة محتويات الكتاب ومن ثم خطاب تصدير للكتاب، من سمو أمير منطقة مكة المكرمة. يتلوه المقدمة والتمهيد والفصول الخمسة للكتاب، وينتهي الكتاب بخاتمة، يعقبها ثبتٌ للمصادر والمراجع.

ولما تتمتع به مكة المكرمة والمدينة المنورة، من مكانة دينية خاصة في قلوب المسلمين، تأتي أهمية البحث والتقصي في الآثار الإسلامية الواقعة داخل، أو خارج النطاقات العمرانية، لهاتين المدينتين المقدستين، على وجه الخصوص. ويبدو أن تلك الأهمية التاريخية والحضارية للآثار الإسلامية، لم توضع في الحسبان إبان مرور المدينتين المقدستين بطفرة عمرانية، انعكست نتائجها بشكل سلبي - الى حد ما - على زوال، ومن ثم، انعدام وجود الأثر الحضاري الإسلامي.

وهذه الحالة، للأسف الشديد، في غياب الرادع القانوني أو الوطني، يتحمل نتائجها القائمون على تخطيط المدن والطرق في المملكة وهي تتكرر بشكل يومي في جميع أنحاء المدن السعودية، لذلك يقرع المؤلف في ثنايا "المقدمة"، الجرس ازاء المخاوف المترتبة، على الإرث التاريخي والحضاري للمملكة، من الإزالات "العفوية" المصاحبة للتطور العمراني. والمؤلف في حقيقة الأمر، يتعرض لموضوع مهم وخطر، على جميع الأصعدة لما له من تداعيات، عند كتابة وتدوين المسار التاريخي والحضاري الإسلامي، للمملكة العربية السعودية.

وتأتي أمهات المصادر التاريخية العربية الإسلامية، مثل تاريخ الطبري وابن الأثير وغيرهما، إلى جانب كتب الغزوات والسير والسنن النبوية الشريفة، في صدارة قائمة الإعداد لدراسة مناطق تاريخية تحظى بأهمية دينية إسلامية، مثل المدينة المنورة. ومن ثم تأتي كتب الأعلام، كالطبقات لأبن سعد، والمعاجم الجغرافية، كمعالم طابه للفيروز آبادي ووفاء الوفاء للسمهودي، رافداً رئيساً من روافد الدراسة العلمية. أما كتب الرحالة، مبكرها ومتأخرها، المتضمنة للمذكرات والتجارب والمشاهدات والانطباعات الشخصية، فهي جميعاً بلا شك، تُعد من الحزم العلمية التي يلزم الاستعانة بها، لتخطي المصاعب البحثية، التي ربما تجابه الباحث في مشوار تقصيه للحقيقة العلمية.

ويزخر الكتاب، الذي نستعرضه، بجميع الجوانب العلمية المشار إليها، وقد أحسن المؤلف توظيف مصادره العلمية، خلال تعرضه لآثار المدينة المنورة بأنواعها المختلفة، مع الأخذ في الاعتبار، أنه أسقط الرجوع مباشرة الى مصدر مهم ومبكر، من مصادر التاريخ السياسي والحضاري للمدينة المنورة، وهو (تاريخ المدينة المنورة لمؤلفه أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري ١٧٣هـ - ٢٦٢هـ)، واعتماده شبه الكلي على مؤلف السمهودي، وكتابات عبد القدوس الأنصاري.

ومع الاعتراف للمؤلف باستخدامه الأمثل للمراجع العلمية المتوفرة، من عربية وأجنبية، إلا أن المرء يجد نفسه في حيرة، عند إشارة المؤلف إلى مرجع ما على أنه مصدر، أو إشارته إلى مصدر ما على أنه مرجعٌ. ويتكرر هذا الخطأ العلمي غير المقصود بطبيعة الحال في جل صفحات الكتاب، بما فيها قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية!! (انظر،

مثلاً: ص ١٩ - هامش رقم ٢-٣).

أما "التمهيد"، فيحتوي على بسط مختصر للموقع الجغرافي للمدينة المنورة، مع الإشارة لوضعها الطوبوغرافي، والإلماح لأهم معالمها الجغرافية. كما تم تناول الخطط السكانية بالمدينة قبل ظهور الإسلام وبعده، والتطورات العمرانية، التي طرأت على نسيجها العمراني خلال العصور الإسلامية المتعاقبة. وهذه المعلومات العلمية، المستقاة من إشارات مصدرية ومرجعية، وتُعنى بالجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية، فهي بلا شك، مفيدة جداً للقارئ غير المتخصص، وتزوده بمعلومات جمة عن حال المدينة المنورة خلال عصورها القديمة والإسلامية. أما عند النظر الى الرابط العلمي، بين هذه المعلومات الواردة في التمهيد، وبين عناصر المادة العلمية، المضمنة في فصول الكتاب نجد الغياب التام لهذا الرابط العلمي. وكنت أتمنى لو أنه تم استثمار هذا القسم (التمهيد) بجعله فرشة (توطئة) علمية محكمة، تربط من خلالها أوشاج العلاقات التاريخية والحضارية السائدة، آنذاك، بين هذه المواقع الأثرية في المنطقة، والمدينة المنورة كعاصمة للدولة الإسلامية. وغياب هذا الرابط العلمي، بين محتوى التمهيد وفصول الكتاب، يظهر مرة أخرى عند تطبيقه على العلاقة القائمة بين عنوان الكتاب (دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة)، والمحتوى العلمي المضمّن، مع أنني على يقين تام بان المؤلف الكريم يقصد منطقة المدينة المنورة، ذاتها.

أشتهرت المدن الحجازية، مثل الطائف وخيبر والمدينة المنورة، بمنشأتها المائية بمختلف أنواعها، عبر العصور القديمة. وانعكست هذه الشهرة الحضارية على البعد الاقتصادي للمنطقة ككل، الأمر الذي أدى، بمرور الزمن، الى ازدهار، ونمو العديد من الحواضر بمنطقة الحجاز. ويظهر السد كمنشأة مائية مهمة، تتلازم -بشكل أو آخر - مع الاستيطان البشري، والنمو الزراعي، في أي منطقة كانت. إضافة إلى الدور المتوقع لفاعلية السد، برفع معدل المياه السطحية في باطن الأراضي، المحاذية لموقعه الجغرافي.

ويضم الفضاء الجغرافي المحيط بالمدينة المنورة نماذج جيدة من السّدود المائية الأثرية، مثل سد معاوية، الواقع بوادي الخنق، وسد وادي رانوناء، وسد عاصم. وجميع هذه السدود، وغيرها من المنشآت المائية الحيوية والواقعة بمنطقة المدينة المنورة، لعبت دوراً تاريخياً ملموساً في النهضة والحركة الاقتصادية للمنطقة. ويعد وجودها في هذا الحيّز الجغرافي للمدينة المنورة، امتداداً اقتصادياً طبيعياً للسدود المائية بمنطقة الطائف. وخير برهان هو الكشف الأخير عن سد وادي الخنق، الذي تعود بنيته الإنشائية إلى عصر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

وتتضاعف الأهمية التاريخية والآثارية لهذا النمط من المنشآت المائية، خاصة عند اقترانها بكتابات ونقوش صخرية تأسيسية، أو وجود كتابات صخرية في حِمى المنشأة المائية تمت لها بصلة، من جهة أو أخرى. وما السدود الثلاثة المضمنة في الفصل الأول من هذا الكتاب (سد معاوية بوادي الخنق ، وسد وادي رانوناء، وسد عاصم) سوىٰ شواهد أثرية وحضارية للمد العمراني والاقتصادي بالمنطقة مسايرة مع ما وصلت إليه المدينة المنورة وما جاورها، من رقي ثقافي وفكري.

ومن أهم هذه السدود الثلاثة، سد معاوية بن أبي سفيان بوادي الخنق، نظراً لضخامة الهيكلية المعمارية للسد، ووجود نقش تأسيسي يؤرخ لعمارته. ففي ثنايا تَعَرُّض المؤلف لهذا السد، أورد دراسة جيدة عن عمارته، والحجر التأسيسي المتزامن مع إنشائه. واتفق مع ما أورده في أن ما ضُمِّن في الكتاب ليس إلا مقدمة لدراسات علمية مستقبلية، تضع في الاعتبار جميع الجوانب الجيولوجية والهندسية والفنية وغيرها. وفيما يتعلق بنقش هذا السد، فقد ورد (في صفحة ٥١) عند الحديث عن كثير بن الصلت، ما يلي: ".. في السطر ٩-١٠ من النقش نجد اسم كثير بن الصلت بأنه هو الذي قام على بناء السد". ويظهر من نص النقش التأسيسي (وقام عليه كثير بن الصلت) بأن هذه الشخصية لم تتولَ بناء السد، بل مسؤولية الإشراف على تشغيله والاعتناء به، أي أن السد بأكمله أصبح تحت إمرة وتصرف كثير بن الصلت وأبو موسى، وهما المشرفان عليه.

أما ما يتعلق بنقش سد وادي رانوناء (ص ٦٨-٧٤)، فيبدو أن كلمات محدودة في نص النقش، لا تزال تحتاج إلى

بعض التعديلات البسيطة في قراءتها، على الرغم من اقتراح الأستاذ المؤرخ عبدالقدوس الأنصاري - رحمه الله - ومؤلف هذا الكتاب قراءات لها. وهناك احتمال بأن تكون قراءة الأبيات الشعرية لنقش سد وادي رانوناء على النحو الاتي:

مضيات لهذا السد بالملح كله

على كل وادي (ماجنان؟) من الأرض

رأيت الغواني لايزلن يردنه

وكل منا سمح سجيته غض

فبجانب الكتابات الإسلامية المتصلة مباشرة ببناء السدود أو حماها، تمكن المؤلف من توثيق مجموعة من الكتابات الإسلامية في كل من: وادي العقيق، ووادي الخنق، ووادي ضبوعه، ومنطقة الضلوع، وجبل البيضاء، ومنطقة العوينه، وقد شكلت هذه المجموعة من النقوش الصخرية، المادة العلمية للفصل الثاني من هذا الكتاب. وجميع هذه النقوش الصخرية غير مؤرخة، ما عدا نقش أسيد الحضير، المؤرخ سنة ١٨٤هـ المنفذ على جبل البيضاء. أما بقية النقوش، من خلال أشكال الحروف، فترجع تقريباً الى الفترة التاريخية، الواقعة ما بين القرن الأول والقرن الثالث الهجريين. واعتقد أن هذه المجموعة من الكتابات الاسلامية تحتاج الى مقدمة ضافية، يوضح من خلالها أهمية هذه الكتابات، ويتم ربطها بنقوش المنطقة، التي سبق الكشف عنها، خاصة فيما يتعلق بتطور الرسم الحرفي للكلمة، في النقوش المؤرخة.

تعد دراسة الكتابات العربية الإسلامية المبكرة، حجر زاوية، في ميدان علم الآثار، لأهميتها القصوى في وضع الأطر التاريخية الحضارية للمواقع الأثرية، والتعرف من خلالها على مسيرة الخط العربي وتطوره. فما بالك بهذه المجموعة من الكتابات العربية الإسلامية، لما يتم الكشف عنها وتوثيقها من نواحي المدينة المنورة، دار هجرة المصطفى محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونواة الدولة الإسلامية. ومن المؤكد أنّ لَمّ شتات ما تم الكشف عنه بمنطقة المدينة المنورة، من كتابات عربية إسلامية، (مثل كتابات جبل سلع، ورواوة، والصويدرة، والحناكية، والربذة وغيرها من المواضع)، الى هذه المجموعة الجديدة من الكتابات، وما يستجد في المستقبل من اكتشافات، ستكون الحصيلة مبهرة. وسيجد الدّارس والباحث بين يديهما - في النهاية - سفراً ضخماً لا يستهان به، يضم نماذج كتابية خطية تصور تاريخ الخط الحجازي المدني، عبر العصور الإسلامية. وهي دعوة نرجو لها التحقيق والنجاح وأن تجد صداها لدى القائمين والمهتمين بالمحافظة على تراث وآثار وحضارة المملكة العربية السعودية.

وبحكم تنوع طبيعة الأثر بمنطقة المدينة المنورة، كان نصيب الفصل الثالث من هذا الكتاب ثلاثة قصور أثرية، هي: قصر سعيد بن العاص، وقصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقصر هشام (أو مسلمة بن عبدالله بن عروة بين الزبير بن العوام). وهذه القصور الثلاثة عبارة عن نماذج طيبة، تعكس التصاميم والطرق الإنشائية للقصر (المنزل الفسيح) المدني، خلال العصر الإسلامي المبكر. واشتمل هذا الفصل على أوصاف ورسومات توضيحية للمساقط الأفقية للقصور، مع الأخذ في الاعتبار أن الزحف العمراني وعدم المبالاة من قبل العامة، تكالبت على طمس المعالم العمرانية المشيدة في وادي العقيق. والأمل موجود في توثيق البقية الباقية من أطلال هذه القصور ومواقعها (المنازل الفسيحة) بمنطقة المدينة المنورة.

يلي ذلك، الفصل الرابع من الكتاب، ويشتمل على عدد من المواقع الأثرية المتفرقة، ومنها: آثار وادي السد، وآثار وادي النقمى، وآثار وادي مهلهل، وآثار خيف البصل، ومنطقة رواوة وآثارها الكتابية، وبئر السائب وآثارها الباقية.

وتشتمل هذه المواقع الآثرية "المتفرقة" بمنطقة المدينة المنورة، على أطلال أثرية، من جملتها: السدود، والقنوات، والوحدات الإنشائية، والقصور، والكتابات الصخرية. وهنا أتساءل عن عدم تضمين المؤلف هذه المادة الأثرية للفصول السابقة من الكتاب، حسب تصنيفها العلمي. وما معنى حشدها في فصل مستقل، تحت عنوان "مواقع آثرية متفرقة"؟ فجميع المواقع الأثرية بمنطقة المدينة المنورة تعد متفرقة مكاناً، هذا بجانب عدم الحاجة إلى تضمين الآثار الكتابية في منطقة رواوة وبئر السائب في هذا الفصل أو الكتاب، لكون الموقعين سبق التطرق إليهما في دراسات مستقلة.

ويأتي الفصل الخامس المعنون "الملتقطات السطحية"، خاتماً لفصول هذا الكتاب، ويشتمل على استعراض عام وموجز لبعض الملتقطات السطحية (فخار مطلي وغير مطلي، وخزف، وزجاج) مما عثر عليه في بعض المواقع بمنطقة المدينة المنورة، مثل: منطقة وادي النقمى وخيف البصل ووادي الخنق وقصر عاصم ومنطقة عروة.

وتستحق هذه المجموعة، فعلاً، دراسة علمية أكثر عمقاً وتأصيلاً، على الرغم مما بذله المؤلف، مشكوراً، من جهد عظيم في تلمس الفترات التاريخية (تقع المجموعة ما بين القرنين الأول والرابع الهجريين)، والربط بين هذه القطع ومثيلاتها في العالم الإسلامي. وتعد هذه المجموعة من الملتقطات السطحية، على قلتها، أول نماذج تنشر من منطقة المدينة المنورة، حسب علمنا الحاضر.

وينتهي الكتاب بخاتمة اشتملت على إبراز الأهمية الآثارية والحضارية لهذه المواقع الأثرية، في منطقة المدينة المنورة، وما تضم من آثار إسلامية مبكرة. بجانب استعراض عام لموضوعات الكتاب ومحتوياته، ودعوة الباحثين والدارسين لإجراء دراسات علمية، وتقصي المواقع الأثرية في منطقة المدينة المنورة. ويلاحظ أن الخاتمة لا تشتمل على النتائج أو التوصيات العلمية، التي توصل إليها المؤلف خلال دراسته.

ملاحظات عامة:

ثمة بعض الملاحظات العابرة، التي لا بد من التنوية إليها، ويستحسن أخذها بالاعتبار في الطبعة القادمة، وهي:

١- حاجة الكتاب إلى ثبت تعريفي مفصل، يشتمل على جميع عناصر الوسائل التوضيحية من: صور فوتوغرافية (ضوئية)، وأشكال، وخرائط، ورسومات يدوية.. وغيرها.

٢- خلو جميع الوسائل التوضيحية بالكتاب من الترقيم التسلسلي المعتاد، لمساعدة الباحث والقارئ العادي للاستدلال بها، وعدم وجود تنوية بمصدر الصور.

٣- غياب التعريف بصورة غلاف الكتاب.

٤- حاجة جميع الملتقطات السطحية المصورة إلى رسومات شكلية توضيحية لها.

٥- عدم الحاجة لإقحام كلمة "المصادر" بالعنوان الجانبي للمراجع الأجنبية.

٦- لزوم توضيح بأن هذا الكتاب لا يشتمل على جميع الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة ومنطقتها.

٧- حاجة الكتاب إلى مزيد من الخرائط التوضيحية.

٨- حاجة الكتاب إلى تأطير تاريخي دقيق للمادة العلمية، يصبح في ضوئه تعديل العنوان ممكناً.

٩- يفضل ظهور النص الآتي: " يُرصد ريع هذا الكتاب لصالح الأطفال المعوقين بالمدينة المنورة" بشكل واضح على الغلاف، لا ان تدس هذه العبارة الجميلة على استحياء داخل الكتاب.

وفي الختام، يُشكر المؤلف الكريم على هذا الجهد الميداني العظيم، وتحريه الدقة عند تعامله مع موضوعات الكتاب، واهتمامه البالغ بالآثار الإسلامية المبكرة، في هذه المدينة المقدسة. ويعد هذا الكتاب مرجعاً علمياً لا غنى عنه عند التعرض لآثار منطقة المدينة المنورة. ومن الواضح أن المؤلف حاول، قدر المستطاع، تبسيط المادة العلمية المضمنة، عن طريق العرض الشيق، وبهذا تمكّن من جعل الكتاب صالحاً، أيضاً، للقارئ العادي.

وبإتمام هذه المراجعة السريعة والموجزة لكتاب (دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة)، يخالج النفس شعور، ببروز الحاجة الملحة لوجود توثيق علمي محكم، تاريخي وآثاري، لجميع المواقع الأثرية في المدينة المنورة ومكة المكرمة وما يقع في إطارهما الجغرافي، بما فيها الأماكن التاريخية وخاصة ما يتصل بالسيرة العطرة للرسول (ﷺ).

د. محمد بن عبدالرحمن الثنيان - قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود - ص. ب ٢٤٥٦ - الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية.